

قراءة في قصة « تلك المرأة الورده »

جميل أبو صبيح

الروائي يحيى يخلف من المبدعين القلائل في الرواية العربية، ورواياته تحمل الهم التحرري العربي عامة، ولكن من خلال النافذة الفلسطينية، والشاهد هنا روايته « نجران تحت الصفر » التي تتناول فترة حاسمة من التحوّلات التاريخية في منطقة جنوب الجزيرة العربية، هذه التحولات التي مرّ من خلالها جسد فلسطيني مفعم بالحياة والرؤى الجميلة هو « رأفت » بائع الفلافل، والذي هو في الحقيقة مدرس يبحث عن قوته وحريته وحياته في عالم الصحراء والجذور العميقة العتيقة، فقتل في نجران عن طريق الخطأ.

ثم عندما نقرأ قصة « تلك المرأة الوردة » لهذا الروائي فإننا نجد المعاناة الفلسطينية بعمقها ويوميتها في كشفه للعلاقة التي تربط بين أبناء الخيم العمال الفقراء وبين أرباب العمل أصحاب رؤوس الأموال، هذه العلاقة التي مارس فيها مدير معمل راحة الحلقوم في نابلس دور السيد بينما العمال والفقراء هم العبيد والأجراء، كما ظهرت فيها الإرهاصات الأولى للتفجرات الذاتية المدوية في أعماق الخيم، هذه التفجرات التي لم يتوقعها أحد حتى أبناؤها حينما قال « كيف ينطق الجماد ». ثم صبر العمال الكبير وتحملهم للمراقبة والتفتيش الدقيق والحرمان ومعاناة البطالة، غير أن الانفجار دوّى وملأ المكان عندما صرخت انتصار البنت الفقيرة في وجه مدير راحة الحلقوم. ويصف المؤلف دويّ هذه الصرخة وعمقها وتفجرها العاتي « وصرخت فجأة، صرخ القهر والوجع النائم في قلب الحجارة » ثم « كنت أحدق بانفجارها... انتثرت كأنما تتحول إلى شظايا ثم تجمعت كأنما تضمّ زرد غضبها إلى بعضه البعض، تقدمت خطوة، فخطوة، فثالثة.. وصرخت فجأة ». وكان صراخها في الوقت الذي تهاوى فيه الفتى صابر تحت ضربات القضيب الحديدي، أي بعد أن تهاوى صبر الفلسطيني صابر صار الوضع يحمل كل التوقعات والمفاجآت حتى النهش بالأسنان « كل الاحتمالات واردة بما فيها استعمال الأسنان » ص ٣٨.

في هذا الوقت كانت فورة غضب « انتصار » تلك الفتاة الرمز، أو الاسم الرمز، لقد تهاوى صابر فحمل زمن التهاوي المفاجآت المريرة فجاء دور انتصار.

« كيف رفع الرجل الثور القضيب عالياً، كيف أهوى به على الكتف الأيمن، كيف صدرت الآي المكتومة، كيف ترنح وترنح صابر.. ثم سقط. وإذ ذاك. ألقت انتصار بالكيس الذي كانت تضع فيه الزوادة أو لعله سقط من يدها، كنت أحدق بانفجارها، هزت نفسها بعنف، وارتجف وجهها غضباً... » ص ٣٩.

إنها معادلة وضعها المؤلف بدقة محكمة كتطور حتمي وعلاقة جدلية بين الكبت والصبر والرغبة في الانبثاق، ثم ارهاصات التفجر ثم التوقع والمفاجآت ثم دور تفجر الغضب والانتصار. أي أن عناصر المعادلة التي أدت إلى التفجر والانتصار في القصة هي: الصبر، الإرهاصات، المفاجآت، الانفجار والانتصار.

والنتيجة النهائية هي:

تهاوي الصبر يؤدي إلى انتصار الانفجار. إن هذه القصة توضّح هموم المخيم الأضافية، فهو إلى جانب معاناة التشرد والجوع والفقر والمرض وعدم اهتمام المشرفين عليه بمرافقه العامة الانسانية والأوّلية منها نجده يعاني هموم التحرر الاجتماعي بعمق ووعي فطري نتيجة مخزونه من التجارب الحافلة بالشقاء والأسى، إذ أنه مستودع كبير للعمال والفقراء المسلوبي الحريات، ومناخ خصب لممارسات الرأسماليين الفوقية، وهذا ما نلاحظه في المحاسبة القاسية التي يمارسها مدير المعمل مع عمّاله من أبناء مخيم بلاطه.

وفي داخل القصة تنمو علاقة حب طفلية مبهمة بين الفتى العامل الصغير وبين انتصار تلك الفتاة العاملة البسيطة التي تكبره بعدّة سنوات. ولكنها كانت علاقة من جانب واحد، هو جانب الطفل، وهذه العلاقة لا تتعدى الأحاسيس والتصرفات البريئة غير الواعية، فالفتى يلحس ثوبها الذي أدار عليه أحدهم ذات مرّة شيئاً من السكر المطحون » ص ١٦، وقد كانت علاقتها معه علاقة أمومة وصداقة، وهي علاقة رمزية، ترمز إلى حاجة ابن المخيم إلى أمومة يقيمها مع التحرر والانبثاق بالسريان في جذوره النفسية عن طريق الأم « انتصار » التي أحسها الطفل بغرائزه الطفلية المبهمة، علاقة حب عفوية صادقة فيها الانتماء

والاندهاش « وأنتقل إلى الوجوه لأرى كيف ينظرون إلى قمري ووردتي » ص ٢٧.

« وتهز جسدها بعنف ليس له مثيل، كأنما تطرد منه القهر، كأنما تلفظ منه الصدأ » ص ٢٨.

ثم حين اتهمت المرأة الحامل انتصار بسرقة الاسوارة الذهبية نجده ينتقض من الداخل ويودّ لو « يطرح تلك المرأة الحامل أرضاً ويدوس على رأسها » ص ٣٠.

لقد كان هذا الإتهام مبرراً لدى انتصار والطفل والمؤلف لانهاء القصة، حيث جاءت النهاية بعد لقاء حاسم بين انتصار وبين الطفل وبين رب العمل الثور، وكان بالإضافة إلى مبرر ترك « انتصار » القسري للعمل كان مبرراً لأن تقول للطفل « يتعين علينا أن نفترق » حيث امتلأ الفضاء كله بالفراغ وأصبح الكون صغيراً في عالم الطفل، وحيث اهتزّ وأحس بانتمائه الحقيقي وخوفه على هذا الانتماء، فرأى « شجرة التين اليابسة ما تزال تتشبث بالبقاء، وكانت امرأة مسنة تنشر على أغصانها التي تشبه القرون غيارات طفل رضيع » ص ٤١، وهذه نظرة رمزية إلى استمرارية الحياة ويوميتها المتوالية رغم كل شيء، ولعله الفجر الذي ينظر إليه هذا الطفل بأن لا بد أن يندثر الماضي بكل ما فيه حين يأتي المستقبل بكل ما نأمل منه.

يتقنن مسار القصة في، أولاً: شخصية الفتى الصغير ابن المخيم حيث يمثل الفتى أحاسيس المخيم المكبوتة، ثانياً: شخصية صابر الذي هو الصبر المثقل بأحمال الشقاء والكبت. ثالثاً: شخصية انتصار التي هي الانبثاق والتحرر، والتي هي أيضاً الاطار الذي يحتوي الحدث ومساق القصة والحبكة، وهي المبرر الوحيد لنسج القصة، إذ أنها (الأم - الوطن) الذي يحتوي مشاعر الشخصيات وأفعالها المتناقضة. رابعاً: شخصية مدير المعمل الذي يبرز الجانب الآخر من المخيم وهو جانب صراع المخيم مع أرباب العمل من أصحاب رؤوس الأموال. خامساً: شخصية الحارس الفقير الذي يقف ضد مصالحه ومصالح مجتمعه حينما يتحول إلى كلب حراسة لأموال الأسياد.

تكشف الشخصيات في القصة عن نفسها، عن هواجسها ومشاعرها ورأيها في بيئتها، فالطفل المحب يحس بهذا الحب الطفلي فيتصرف تلقائياً بما يعبر عنه، ثم انتصار تحسّ بحميمية العلاقة الأمومية مع الطفل، فتلحس السكر المطحون عن ثيابه، وكذلك الشاب صابر الذي ينتهز فرصة غياب رب العمل فيشق أكياس السكر، ولعل هذه الشخصية كانت من أكثر الشخصيات وعياً ظاهراً، فهي طلبت من العمال أن يأخذوا السكر والحلقوم للأطفال وللأبناء الصغار: وهذا هو لبّ الصراع بين أرباب العمل وبين الأجراء. أما الحارس فهو كلب الحراسة في أي مكان، حريص على أموال ومصالح من يضطهدونه ويسلبون منه كرامته فيأخذ بالتعويض الرخيص ممن لا حول لهم، وهم أجراء المعمل، حيث يظن نفسه مُهِمًّا بينهم. كما أن شخصية رب العمل هي الشخصية النافرة ممن هم في طبقة دون طبقتها حيث تصف العمال بأبناء الكلبة، تحس هذه الشخصية بتناقضها وشدة وطأة هذا التناقض مع العاملين عندها فتأخذ بتفتيشهم بدقّة ومراقبتهم مراقبة مستمرة، وحسم يومية وطرد من يثبت أنه أخذ حبّة حلقوم ليدسها في فم أخيه الصغير أو ابنه، ثم المعاقبة الدامية التي أدت إلى الانفجار.

أما الشخصيات الأخرى فقد جاءت ثانوية لتخدم مسار الحدث ونهج الشخصيات الرئيسية التي ذكرتها.

مسار الحدث هنا يتصاعد مع تزايد وعي الشخصيات لواقعها، ثم تأثير الشخصيات الثانوية على الشخصيات الرئيسية كما هو حال المرأة الحامل مع انتصار، حيث يتصاعد الحدث بعيداً عن رغبة المؤلف، لأنه يتساوق نتيجة محصلة الظروف المحيطة بالشخصيات كما حدث في الانفجار، وفي غيرة المرأة الحامل، ثم إن العقدة وقمّة الحدث كانتا متوقعتين لدى الشخصيات نفسها، إذ أصبح الوضع يحمل كل الاحتمالات بما فيها استعمال الأسنان، وكذلك مخزون هذه الشخصيات من الكبت والوعي الطبقي.

أما اسلوب المؤلف فهو أكثر الأساليب أماناً ومقدرة على الكشف والسيطرة على أحداث القصة وشخصياتها وهو ضمير المتكلم، وهذا يدلنا على ضخامة المخزون الداخلي لدى المؤلف وعمق تجاربه وأصالتها.

توجد في خاتمة القصة مجموعة من الخواطر الشعرية، جعلها المؤلف أشبه بمناجاة ليلية لطيف وروح « انتصار » وهو مشتت في مدائن العالم وطرقاته، من كل مدينة خاطرة، وهذا له معناه الفلسطيني الخاص جداً، إذ هو التشرد والاغتراب وعدم الاستقرار، وسواء كانت كتابتها في مكان واحد أم في أماكن وأزمنة متفرقة فإنها كما ذكرت سمة خاصة بعدم الاستقرار النفسي والمكاني.

هذه الخواطر الشعرية، لو أمعنّا النظر فيها لوجدنا أنها قصائد حقيقية من شعر النثر لتملكها للموسيقى الداخلية وتراكيب الجمل الشعرية والحروف ذات الجرس الموسيقي الذي يجعل العلاقة بين حروف الكلمات خالية من النشاز، إضافة إلى الجملة الشعرية والصورة الشعرية المكثفتين.

ولكن لماذا هذا الاقتران بين القصة والشعر في كتاب قصة اسماه الروائي يحيى يخلف بـ « تلك المرأة الوردة »؟!

بالإضافة إلى الإجابة التي قد يقولها المؤلف والتي قد تأتلف أو تختلف مع اجابتي فإنني أجد لها تعليلين:

الأول: فني:- وهو أن الزمن الشعري والزمن القصصي يضمهما إطار واحد قد ينصهران فيه مستقبلاً ليكونا عملاً واحداً جديداً، وهنا يكمن الابداع المشرق والجديد للمؤلف إضافة إلى الابداع القصصي.

الثاني: موضوعي:- وهو التواصل النفسي بين موضوع القصة « تلك المرأة الوردة » وبين موضوع هذه القصائد والذي هو حالة المؤلف النفسية الواحدة المتواصلة أثناء كتابة القصة والقصائد.

جميل أبو صبيح